الجغرافية التاريخية
بين اشكالية المفهوم ووضوح المنهج

المدرس المساعد
عبد الرحمن علي عبد الرحمن
جامعة البصرة – كلية الآداب

المقدمة :

لم تستحوذ دراسة الجغرافية التاريخية بالعناية الكافية من الباحثين الجغـرافيين ، وذلك لأنشغال الباحث الجغرافي بمشاكل الحاضر بشكل مطلق كأنه مستقل عن ماضيه ، ونحن لا نستطيع ان نتجاهل أهمية الجغرافية التاريخية في حقل الجغرافية ، إذ ان الكثير من الحقائق الجغرافية الحاضرة هي نتاج الماضي ، وبما ان الاهتمام الجغرافي ينـصب على دراسة المكان بشكل أساس ، اذ كيف أصبح المكان بالشكل الحالي ؟ فالجواب يقودنا الى دراسته في الماضي .

يهدف البحث الى الكشف عن مفهوم الجغرافية التاريخية من عبر إماطة اللثام عن الإشكاليات التي تحيط به ، فضلاً عن ابراز اهمية الجغرافية التاريخية ومـدى وضـوح مناهجها . وتأتي أهمية البحث من قيمة الجغرافية التاريخية كقسم له فروعـه ، فهـو ذو أهمية كبيرة للباحثين الجغرافيين . ولقد اعتمد البحث على منهجين ، منهج التحليل ألسببي والمنهج الاستقرائي بغية تحقيق هدف البحث .

العلاقة بين الجغرافية والتاريخ :

ان العلاقة بين الجغرافية والتاريخ موضوع قديم جـداً شـغل أذهـان المفكـرين والباحثين منذ ان اهتموا بدراسة طبيعة المجتمع البشري على سطح الأرض[١] ، إذ تهـتم الجغرافية بالمكان وهذا دليل على وجود متغيرات مكانية في الماضي والحاضر ومستقبل الإنسان ، بينما يهتم التاريخ بالزمان وهذا دليل على وجود متغيرات زمانية في ماضـي

وحاضر ومستقبل الإنسان ، لذا فأن الجغرافية التاريخية تتمحور في ثلاثة معايير أساسية وهي المكان والإنسان والزمان ، حيث نستطيع ان نحدد الظاهرة الجغرافية من عبر معاييرها .

يرى **كانت** ان الجغرافية تدرس جميع الظواهر المنتظمة وفق أنماطها المكانية ، بينما يدرس التأريخ جميع الظواهر المنتظمة وفق أنماطها الزمانية[٢] ، إذ ان الجغرافية تحاول وصف الأنماط المكانية وتفسيرها لظواهر سطح الأرض ثم تقسيم الأرض الى أقاليم ، اما التاريخ يحاول وصف الأنماط الزمانية وتفسيرها وفق الإحداث التاريخية بغية تقسيمها الى المراحل التاريخية ، فضلاً عن ان الميدان التاريخي ليس الماضي البعيد فحسب بل الماضي القريب والحاضر ، وميدانه أيضا العالم بأجمعه ، ولسهولة الدراسة عمل التاريخي على تقسيم عالمه الى أقاليم جغرافية ، مثلما عمل الجغرافي حين قسم دراساته الى مراحل تاريخية[٣] . بينما يرى **ميشلية** بغير الأساس الجغرافي يبدو لنا ان الناس الذين يصنعون التاريخ كما لو كانوا يمشون في الهواء، اما **هايلين** فيرى ان الجغرافية بغير التاريخ قد تكون لها حياة وحركة ، ولكنها بغير نظام او استقرار[٤] . ولقد اعتقد البعض ان التاريخ متحرك والجغرافية جامدة ، ويبدو ان هذا الرأي يفتقد الصواب لأن الجغرافية متحركة ، اذ يلعب الموقع الجغرافي أهمية في مرحلة تاريخية ما ومن ثم يفقدها في مرحلة أخرى ، مثل رأس الرجاء الصالح الذي لعب دوراً مهماً الا انه ضعف بعد فتح قناة السويس ، لذا يمكن القول ان الجغرافية التاريخية من أصعب أقسام الجغرافية وأكثرها تعقيداً ، لأنها تهدف الى ربط التفاعلات الجغرافية في الماضي وتحليلها ، إذ ان دراسة الجغرافية التاريخية على درجة عالية من التداخل بين الجغرافيا والتاريخ حيث لا تستقيم الدراسة إلا إذا جاءت بشكل منهجي دقيق . والباحث في الجغرافية التاريخية يستلهم مادته من الحوادث التاريخية ذات البعد المكاني والزماني ، فالجغرافية والتاريخ كالنخلة أرضها الجغرافية وماؤها التاريخ ، يرى **هتنر** بأن الجغرافية التاريخية ينبغي ان تعهد بدرجة كبيرة الى أيدي المؤرخين ، وهذا يدل على مدى ارتباطها بالوثائق التاريخية، إلا إن **براون** يرى ان مراجعة الوثائق التاريخية وتفسيرها تتطلبان دراية الجغرافي وإمكانياته[٥] ، ويقف الباحث مع الرأي الأخير موقفاً مؤيداً فهو التفسير العلمي المنطقي لحقيقة الجغرافية التاريخية .

مفهوم الجغرافية التاريخية :

لا يستطيع الجغرافي ان يكتفي بدراسة جغرافية الحاضر* أساسا لأية دراسة جغرافية لأن اللاندسكيب الطبيعي الذي نشاهده لم يصل الى وضعه الراهن الا بعد تبديل وتغيير ، وهو في طريقه لأن يكون لاند سكيب حضاري ، إذ ان أية مدينة ظهرت في التاريخ وتطورت فأن مظهرها الحاضر هو نتيجة للماضي الذي عاشته ، لذا يمكن القول ان الجغرافية التاريخية هي جغرافية الماضي التي تكشف تطور المكان عبر الزمن ، ولقد أكد ذلك **مارثه وهتنر وفايمر**(٦) . وهنا يطرح سؤال ما هو الحد الفاصل بين الجغرافية التاريخية وجغرافية الحاضر ؟ الجواب ان الماضي في مفهومنا هو أي زمن مضى سواء قبل ايام أو قبل مئات الآلاف من السنين ، وإما الحاضر فهو حالة لا تلبث ان تدوم طويلاً حتى تمسي جزءاً من الماضي بعد حقبة من الزمن ، فهي تشبه صورة في فلم سينمائي تختفي لتحل محلها صورة أخرى . ان كل ما في جغرافية الحاضر سيصبح جزءاً من الجغرافية التاريخية ، لذا يرى الباحث ان كل دراسة تقع خارج نطاق التاريخ المعاصر ** تعد ضمن حدود دراسة الجغرافية التاريخية ، ويمكن تشبيه ذلك بالجبل الجليدي الطافي لا يظهر منه الا ثلثه وهو جغرافية الحاضر بكل فروعها ، وإما الجسم الغاطس الأكبر فهو الجغرافية التاريخية بكل فروعها(٧) .

ولا يتصور البعض خطأ ان الجغرافية التاريخية تعني بالماضي فقط بل ان مجالها الإضافي هو الأمتداد الى الحاضر(٨) لأنها تصل الماضي بالحاضر مما يؤدي الى استشفاف المستقبل ، اذ يرى **تونبي** ان المعرفة الدقيقة للماضي والحاضر تؤدي الى تنبؤ صائب بالمستقبل(٩) . ويمكن تقسيم جغرافية الماضي الى قسمين هما الجغرافية التاريخية وجغرافية ما قبل التاريخ *** _ تسمى في بعض المصادر بالجغرافية القديمة من اجل تمييزها عن الجغرافية التاريخية _ وقد يتساءل البعض ما الفرق بينهما ؟ الجواب ان الدراسة في جغرافية ما قبل التاريخ تختلف في مضمونها وأسلوب بحثها اختلافاً جذرياً عن الجغرافية التاريخية ، اذ تتم فيها دراسة كل المتغيرات التي طرأت على القشرة الأرضية والأحوال المناخية عبر العصور الجيولوجية القديمة وتطور الإنسان وانتشاره والمراحل الحضارية قبل الكتابة(١٠) ، إما الدراسة في الجغرافية التاريخية فهي تهدف الى

التعرف على أصل الظواهر الجغرافية وكيفية تطورها منذ عصر الكتابة ، وكذلك دراسة الإنسان وفعالياته المختلفة وتفاعلها مع الحيز المكاني .

ومن اجل ان ندرك طبيعة دراسة الجغرافية التاريخية لا بد ان نلقي نظرة على مفهومها الذي سيحدد موقعها الحقيقي ضمن حقل الجغرافية ، فهناك مفاهيم متنوعة ومتعددة تدل على تفرع الجغرافية التاريخية ، والتفرع دليل على سعتها المتأتية من ارتباطها بكافة فروع الجغرافية الطبيعية والبشرية ، ويمكن إجمال تلك المفاهيم بما يلي :

١ــ المظهر الخارجي المتغير للبيئة عبر الزمن :

The Changing Landscap Through Time

يدرس تطور البيئات الماضية وتحليل كيفية ظهور الظاهرة واتخاذها لحيز مكاني ، حيث يرى **جلبرت** و**فريمان** أنها دراسة تغير الحدود السياسية بين الدول ، بينما يرى **تايلور** **وبراون وهتنر** أنها دراسة جغرافية أية مرحلة تاريخية تحتوي على أدلة تاريخية[١١] ، كما يرى **إيست** أنها تحاول الكشف عن أنواع العمران ونوع النشاط الاقتصادي وتوزيع السكان فيها[١٢] .

٢ــ التغير الجغرافي عبر الزمن :

Geographical change Through Time

يهتم بوصف العمليات التي أدت الى تغير العوامل الجغرافية عبر الزمن ، ويتميز هذا المفهوم بقلة العثرات المنهجية ومرونته[١٣] ، أذ يؤكد **وتيلسي** على الاهتمام بوصف العلاقات الجغرافية المتبادلة وتفسيرها لمرحلة معينة من مراحل التاريخ ، ويرى **جلبرت** أنها دراسة تاريخ الكشوف الجغرافية ودراسة تاريخ علم الجغرافية ، ولقد أكد **ساور** على ان دراسة تاريخ علم الجغرافية جزء من عمل الجغرافية التاريخية ، وهي أيضا ركيزة من ركائز الفكر الجغرافي**** ، وكما يرى **ميشيل** انها دراسة التغيرات الجغرافية عبر السنين الطويلة[١٤] ، بينما يرى **كلارك** انها دراسة التغير الجغرافي لأية مرحلة زمنية سواء كانت الدراسة خاصة بظاهرة بشرية أم طبيعية ومهما كانت مساحتها [١٥] .

٣_ أثر الجغرافية في التاريخ :

The Geographical factor in History

يهتم ببيان أثر العامل الجغرافي في توجيه التاريخ من عبر دراسة نشاط الإنسان في الماضي وأثره وفي تتابع الإحداث التاريخية ، حيث يرى **جلبرت** أنها دراسة تأثير البيئة على مجرى الحوادث التاريخية[١٦] . ويرى **فاوست** أنها دراسة تأثير الحقائق الجغرافية بالحوادث التاريخية[١٧] ، وأما **سمث** فيرى أنها تكشف أثر البيئة على الأفكار الدينية في التاريخ[١٨] .

٤_ أعادة بناء جغرافيات الماضي :

The Reconstruction of past Geographies

يعد من أكثر مفاهيم الجغرافية التاريخية شيوعاً ، فهو يسعى لإعادة بناء جغرافيات الماضي ، ونقصد بجغرافيات الماضي جميع الدراسات الجغرافية الطبيعية والبشرية . ولقد اكتشف الجغرافيون ان إعادة بناء جغرافية الماضي لها أهميتها وقيمتها المتمثلة في المساعدة على رسم قطاعات جغرافية متتالية لمنطقة ما عبر الزمن[١٩] . ويرى **ولدرج** أنها تتعلق بمشاكل الحاضر تكمن حلولها بالعودة الى الماضي ، أما **كريتشمر** فيجد أنها أعادة بناء الجغرافيات الماضية الإقليمية والبشرية ، ويذهب ويمر أنها مقارنة جغرافيات المراحل المختلفة للمنطقة نفسها ، بينما يرى **هارتشون** أنها توزيع الجماعات البشرية ووصف تكوينها العنصري وتطوره عبر الزمن ، وأما **ماكندر** فيرى أنها دراسة تطور الأحوال الجغرافية في الماضي ووصف ما كان قائماً وصفاً دقيقاً ينطبق على الحاضر التاريخي لتلك المنطقة[٢٠] . ويذكر **جلبرت** أنها دراسة الجغرافية الإقليمية للماضي[٢١] .

يعتقد بعض الجغرافيين ان الجغرافية التاريخية تأتي عملياً وفلسفياً مرافقة لقسم الجغرافية البشرية مترجماً فقط الى الماضي القريب أو البعيد ، وهذا ما اعتقده أيضا الجغرافيون الفرنسيون ، اذ اعتبروا الجغرافية التاريخية جزءاً مهماً من الجغرافية إلا أنهم عملوا على حصرها داخل حدود الجغرافية البشرية ، بينما فصلها بعض الجغرافيين عن الجغرافية الطبيعية البشرية[٢٢] ، ويرى الباحث ان الجغرافية التاريخية ليست فرعاً من الجغرافية البشرية وليست فرعاً من الجغرافية الطبيعية وليست جغرافية التاريخ أنما هي

جغرافية مستقلة ولها فروعها ، وهذا ما أكده **هتنر** ان الجغرافية التاريخية هي رؤيا جاهزة لأية فترة من فترات التاريخ ، وأنها تكتب بصورة منفصلة لكل فترة فليس هنالك جغرافية واحدة ولكن هنالك العديد من الجغرافيات التاريخية [٢٣] .

نستشف من ذلك إن إشكالية المفهوم تنقسم الى ثلاثة محاور أساسية هي :_

المحور الأول : إشكالية المفهوم من جراء تنوع المفاهيم

فهي تهدف الى دراسة المظهر الخارجي والتغير الجغرافي وآثر الجغرافية في التاريخ وجغرافيات الماضي ، فكل واحدة من هذه المفاهيم تعد دراسة متكاملة بحد ذاتها ، ويدخل ضمن طياتها العديد من الدراسات الجغرافية .

المحور الثاني : إشكالية المفهوم من جراء غموض الخط الفاصل بين الماضي والحاضر

يرى الباحث انه يمكن حسم الإشكالية بتحديد التاريخ المعاصر – يبدأ من عام ١٩٤٥ الى وقت الحاضر – الذي يعد الخط الفاصل بين الماضي والحاضر ، فكل ما يقع خارج نطاقه يعد دراسة في الجغرافية التاريخية .

المحور الثالث : إشكالية المفهوم من جراء غموض الخط الفاصل بين الجغرافية التاريخية وجغرافية ما قبل التاريخ

تحسم الإشكالية بعصر ظهور الكتابة ، فكل ما يقع قبل هذا العصر ، يعد دراسة في جغرافية ما قبل التاريخ وما يعده دراسة في الجغرافية التاريخية .

أهمية الجغرافية التاريخية :

ان دراسة الجغرافية التاريخية ليس اهتماماً بجغرافية الماضي بشكل مجرد بل لأنها سبباً لجغرافية الحاضر ، اذ ان معرفة خصائص البلدان في الماضي على سبيل المثال معرفة الموارد الاقتصادية يتيح الفرصة لمعرفة طبيعة علاقتها التجارية التي تساهم في تفسير النشاطات البشرية في الماضي ، وعلى الرغم من ان الجغرافيين لم يعد عملهم الرئيس جمع المعلومات وعرضها بل أصبحوا يقدمون دراسات أكثر تطوراً ودقة ، إلا ان جوهر الدراسة في الجغرافية التاريخية وقيمتها يقومان على وصف الحقائق الجغرافية لتفسير الماضي بغية فهم الحاضر ، لذا فأن الباحث في الجغرافية التاريخية هو الوحيد الذي بإمكانه ان يفهم الحاضر الجغرافي بشكل صحيح[٢٤] .

وعلى الرغم من قدم مفهوم الجغرافية التاريخية ، الا أنها تميزت بحداثة أبحاثها بسبب انشغال الجغرافيين بجغرافية الحاضر بشكل مطلق من جهة ولصعوبة جعل ما موجود في كتب التاريخ في قالب الجغرافية التاريخية من جهة أخرى ، فمن اجل ان نكتب جغرافية تاريخية لا يشك أحد في نسبها الجغرافي بحيث تضم بين سطورها حلقات الإحداث التاريخية التي لا يمكن الاستغناء عنها في فهم جغرافية الحاضر، فلابد من دراسة المظاهر العمرانية التي تترك وراءها أثاراً تدل عليها حتى الوقت الحاضر – تسمى هذه الدراسة بالتعمير المتصل *****_ فضلاً عن كشف الضوء عن النواحي الاقتصادية والسكانية للمدينة ، فأهمية الجغرافية التاريخية تأتي من قدرتها على وصف الخصائص الطبيعية في الماضي وبيان دور العامل البشري فيها وتحليلها ضمن إطارها المكاني من اجل ان تكون الدراسة ذات جدوى ، اذ يرى **هارتشون** ان الجغرافية التاريخية قسم مهم من أقسام الجغرافية وان جغرافية الحاضر تكتسب عمقاً ومعنى بالرجوع الى الماضي [٢٥]، ونستشف من ذلك مدى أهمية الجغرافية التاريخية في الجغرافية ، إذ ان أهميتها واضحة ولا جدال فيها، ولكن تتصف دراستها بالصعوبة والتعقيد لانها تستلزم الإلمام بقدر كبير من المصادر من جهة ومقدرة الباحث على الفصل ما بين البحث التاريخي والبحث في آثر الفعل الجغرافي في مجريات التاريخ ، الا إن بعض الجغرافيين لا يقتنعون بأهمية الجغرافية التاريخية بحكم دراستها للماضي ، اذ يرون ان الجغرافية علم متجدد وإمامه من المواضيع الحديثة ما يغني الجغرافيين عن التفكير بالبحث في الماضي[٢٦] .

موقع الجغرافية التاريخية في الجغرافية :

من الضروري ان نحدد موقع الجغرافية التاريخية في علم الجغرافية . إذن أين تقع الجغرافية التاريخية؟ لقد تميز علم الجغرافية عن بقية العلوم بأنه علم واسع متعدد الأقسام والفروع ، لأنه يهتم بدراسة الأرض وما على سطحها من مظاهر طبيعية التي ليس للإنسان دخل في وجودها ، ومظاهر حضارية قد صنعها الإنسان، لذا تشعبت دراسته بحيث أمست لا يضاهيها أي علم آخر ، فجاءت الجغرافية التاريخية لتشكل قسماً مستقلاً ومهما أستمد مواضيعه من قسمي الجغرافية اللذين يشترك معهما لتكوين اختصاصات أو فروع جديدة تابعة للجغرافية التاريخية ، لذا تشعبت الجغرافية التاريخية واتسعت مما أدى

الى تعدد مفاهيمها . ويرى الباحث أنها ترتبط بقسم الجغرافية الطبيعية وفق بعد زمني ومكاني لينبثق فرع جديد تابعة لها ، على سبيل المثال دراسة الظروف المناخية للعصور الجيولوجية دراسة في الجغرافية التاريخية للمناخ القديم ، ودراسة الأنهار والمسطحات المائية دراسة في الجغرافية التاريخية للموارد المائية ، ودراسة معالم المظهر الخارجي Landscape منذ ظهورها دراسة في الجغرافية التاريخية الجيمورفولوجية وغيرها من الدراسات الطبيعية ، أما ارتباطها بقسم الجغرافية البشرية وفق بعد زمني ومكاني سيولد فروعاً جديدة . على سبيل المثال دراسة الوظائف الاقتصادية (الزراعية والصناعية والتجارية) في الماضي ضمن حيز مكاني ، تعد دراسة في الجغرافية التاريخية الاقتصادية ، ودراسة التغيرات في الحدود السياسية دراسة في الجغرافية التاريخية السياسية ، فنحن لا يمكن ان نفهم المشاكل السياسية الراهنة في العالم الا اذا درسنا جغرافيتها التاريخية ، _ الجغرافية السياسية متصلة اتصالاً جوهرياً بالجغرافية التاريخية ، أذ ألف الفرنسيون كتباً عن العلاقة بينهما_ [٢٧] ، ودراسة الوظيفة السكنية أو التركيب الداخلي تعد دراسة في الجغرافية التاريخية للمدن ، ودراسة استصلاح الأراضي واستثمارها دراسة في الجغرافية التاريخية الزراعية وغيرها من الدراسات البشرية كما في الشكل ، فعبر ارتباط الجغرافية التاريخية بشقي الجغرافية ستتضح دراسة جديدة لها منهجها الخاص الذي يسلكه الباحث في عمله .

يرى الباحث على الجغرافي ان يكون ملماً بقسمي الجغرافية وفروعهما حتى يتمكن من البحث في اطار الجغرافية التاريخية ، لأن الجغرافية التاريخية جذر الاختصاصات ، فعلى الجغرافي ان يتسلح بالمعرفة بكافة جوانب الجغرافية من جهة والتمعن بقراءة التاريخ من جهة أخرى حتى يتم صهر المعلومات الجغرافية في قالب التاريخ بكل مهارة من اجل الخروج ببحث رصين في الجغرافية التاريخية ، فهي تمد ذراعاً في الجغرافية الطبيعية وذراعاً في الجغرافية البشرية ، لينتج من هذا التفاعل والتلاحم والتكامل الجغرافية التاريخية بفروعها العديدة . وبما ان الجغرافية توصف بالنحلة التي تجني رحيقها من الزهور ، لأنها شمولية لا تخصصية ولا ينازعها أحد في الانفتاح على العلوم الأخرى ، لذا يرى الباحث ان الجغرافية التاريخية كالجغرافية بإطارها العام ، منفتحة

على التخصصات الجغرافية بلا استثناء ، اذ أنها تشبه الصقر الذي ينظر من السماء الى الأشياء نظرة شاملة لا تخصصية .

البعد الزمني والمكاني في الجغرافية التاريخية :

بما ان الجغرافية التاريخية هي دراسة الحقائق الجغرافية في الماضي ، لذا فأن دراسة المظاهر الطبيعية والبشرية بدأت بعد الزمن الرابع أي ما بعد وجود الإنسان لا سيما عصر ظهور الكتابة ، اما قبل ذلك فقد اقتصرت الدراسة بشكل خاص على المظهر الطبيعي للأرض والتي سميت بالجغرافية ما قبل التاريخ.

ان حجم المرحلة الزمنية التي تخضع الدراسة الجغرافية لها ، قد تكون عبارة عن وحدات زمنية قصيرة كما في دراسة النقل ، ودراسات تصل الوحدات الزمنية فيها الى مستوى أعوام عديدة كالدراسات المناخية والسكانية ، ودراسات أخرى تصل الى عقود وقرون عديدة كالدراسات الاقتصادية ، فضلاً عن دراسات تمتد لمئات وآلاف السنين كالدراسات التاريخية والجيمورفولوجية والمناخ القديم ، اذ يلعب الزمن دوراً مهماً في الدراسة الجغرافية بشكل عام وبعض الدراسات الجغرافية لا سيما الجغرافية التاريخية بشكل خاص بحكم اعتمادها في الأساس على الماضي في الدراسة ، ومما لا شك فيه تتفاوت قيمة الزمن من دراسة جغرافية الى أخرى ، اذ ان معظم الدراسات الجغرافية الحديثة لا تظهر أهمية الزمن بشكل صريح ، ويرى الباحث ان قيمة الزمن عامل مهم في أية دراسة جغرافية .

ان الجغرافيي معني بالتطور او التغير في الظواهر الجغرافية التي يرام دراستها ، لذا يصبح البعد الزمني ذا أهمية كبيرة لان دراسة أي موضوع جغرافي سيخضع لرغبة الجغرافي في دراسة ماضي الظاهرة الجغرافية أو لأهمية تناول موضوع الدراسة في الماضي ، حيث يرى **هتنر** ان الجغرافية حقل يتوارى فيه الزمن في الصورة الخلفية [٢٨]، وبما ان النوع البشري مستمر والمكان موجود ، لذا فأن الزمن مستمر فما يعد اليوم ضمن دراسة الحاضر بعد سنوات يصبح جزءاً من الماضي . ولا شيء أهم من ان يكون البعد الزمني محدداً بعناية شديدة في الدراسة ، اذ يمنح البعد الزمني الجغرافية التاريخية

الشكل

موقع الجغرافية التاريخية في الجغرافية

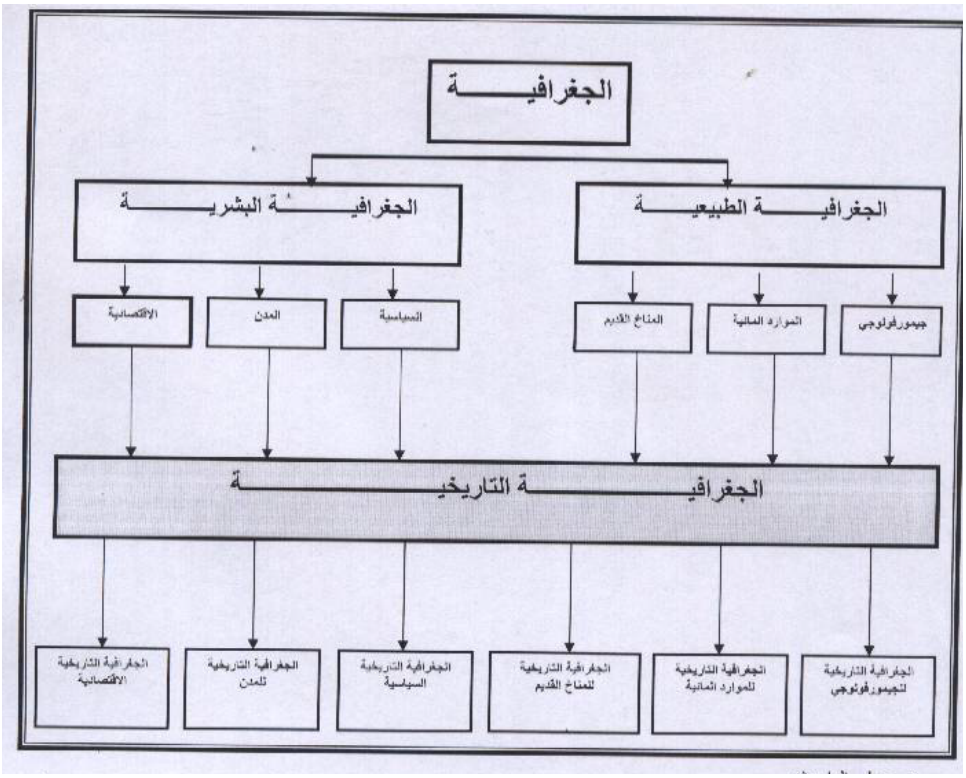

من عمل الباحث .

العمق التطوري ويمنحها سهولة الربط ألتتابعي التحليلي في الإطار المكاني بحيث يكـــون الماضي مفتاح الحاضر[٢٩] ، فالزمن هو البعد الثالث بعد المكان والإنسان اللذين يعـــدان بعد الجغرافية الرئيسين ، فهو يهب الجغرافية التاريخية عنصر الدينميـــة المتجـــددة فـــي الدراسة الجغرافية ، اما البعد المكاني فهو لا يقل أهمية عن البعد الزمني فـــي الدراســـة الجغرافية ، اذ تهتم الجغرافية بالمكان الذي سكنه ويسكنه الإنسان بكل عناصره وصفاته ، فقد ذكر **فيدال دي لابلاش** _ أول من عرف الجغرافية_أنها علم المكان [٣٠] ، ومـــما لا شك فيه يعني بالمكان الذي سكنه الإنسان وليس المكان قبل ظهور الإنسان .

يعد البعد المكاني البعد الأساس الذي حدد معالم الجغرافية ، اذ ان المعنى الحرفي لكلمة الجغرافية – شكل الأرض_ هو الذي أعطى للمكان الأهمية المطلقة في الجغرافية مما جعل الجغرافية الحديثة لا تتطرق الى دراسة الفلك او جوف الأرض الا من باب خصائص المكان ، فالبعد المكاني أمسى من الأهمية والأساس في الجغرافية مما جعل دراسة أية ظاهرة جغرافية تحدد ضمن حيزها المكاني الذي يختلف في خصائص عن غيره من الأماكن ومن ثم تحليلها من اجل إيجاد أفضل العلاقات والتوزيعات المكانية القائمة على أساس الاختلافات المكانية .

وعلى اية حال ، تهتم الجغرافية التاريخية بالبعد المكاني بحكم كون المكان هو اساس الظاهرة الجغرافية ، اذ ان البعد المكاني يعنى بدراسة شقين هما :

أولاً : الخصائص المكانية Spatial Characteristics

يقصد بها جملة من الخصائص الطبيعية والبشرية في الحيز المكاني ، اذ يرى **شولي** ان هدف الجغرافية هو معرفة الأرض من حيث خصائصها ، وكما يرى **أينشتاين** _في نظريته النسبية _ ان خصائص المكان تعتمد على طبيعة المادة الموجودة ، وهو يتفق مع نظرية **كانت** _ النقدية في المكان _ بوجود العلاقة بين خصائص المادة وطبيعة المكان [٣١] ، ونستشف ان خصائص المكان هي سبب لبلورة شخصية المكان .

ثانياً : التغيرات المكانية Spatial Changes

يقصد بها التغيرات التي تحدث في خصائص المكان ، اذ يرى **شلوتر** ان التغيرات في الحيز المكاني تسبب تحركات السكان من مكان الى آخر[٣٢] ويرى الباحث ان التغيرات المكانية هي نتاج تغير الخصائص المكانية .

مناهج البحث في الجغرافية التاريخية :

لا بد ان نطل بكل موضوعية على مناهج الجغرافية التاريخية ، لانه يحدد مسار البحث . ويقصد بكلمة المنهج Method في البحث العلمي هو الطريق المؤدي الى الهدف ومحقق النتائج المطلوبة ، ولا يتم ذلك الا من عبر المعالجة الصحيحة والمتكاملة لكل جوانب البحث والتي تتم عن طريق وضع المنهج السليم منذ البدء، وعلى الرغم من

وضوح منهج الجغرافية التاريخية ، الا ان دراستها تضم بين طياتها العديد من الصعوبات، وتتفاوت الصعاب حسب نوع الدراسة . تمتلك الجغرافية التاريخية مناهج عديدة يمكن أجمالها بما يلي :_

١_ المنهج التاريخي :

يعد هذا المنهج الأساس الثابت لأية دراسة في الجغرافية التاريخية ، اذ يقوم المنهج على إظهار الخصائص الجغرافية وفق تسلسل الإحداث التاريخية في المكان بغية إعداد تفسير جغرافي رصين ، اذ يتعامل الباحث في الجغرافية التاريخية مع مغزى وأهمية المعلومات الكامنة في التاريخ البعيد أو القريب ، حيث ان التاريخ هو مجموعة من الأنشطة البشرية يسعى الباحث الى دراستها .

٢_ المنهج الأصولي :

يعتمد هذا المنهج على دراسة ظاهرة جغرافية واحدة في مكان ما عبر مرحلة زمنية او مراحل زمنية متتالية ، وكيف لعبت دورها في التأثير على سير الحوادث التاريخية ، اذ يقوم على صياغة المفاهيم لتفسير العديد من الظواهر والمشكلات الجغرافية [٣٣] ، ويندر ان تخلو أية دراسة في الجغرافية التاريخية من إتباعه.

٣_ المنهج الإقليمي :

يقوم على أساس دراسة خصائص الإقليم المختلفة عبر مرحلة او مراحل زمنية متتالية ، الا ان متبعي هذا المنهج قد يضعون أنفسهم وسط خضم من المعلومات الجغرافية مما يترك الخط الفاصل بين ما هو في الجغرافية الإقليمية والجغرافية التاريخية غير واضح [٣٤] . ان الباحث في الجغرافية التاريخية والمتخذ من الإقليم مكاناً للدراسة ، أنه يهدف الى أعطاء صورة كاملة للإقليم من حيث إمكانياته الطبيعية والبشرية والاقتصادية وغيرها وآثرها في سير الحوادث التاريخية من أجل إظهار الشخصية التي تميزه عن غيره من الأقاليم في ظل العلاقات المكانية .

٤_ المنهج الوصفي :

يعد من المناهج المهمة ، اذ يقوم على أساس وصف للمكان طبيعياً وبشرياً لمرحلة أو لمراحل تاريخية متتالية من اجل معرفة أسباب الحوادث التاريخية . الملاحظ انه كلما

كانت الدراسة في مرحلة تاريخية قديمة كلما زاد الاعتماد على هذا المنهج بحكم كونه الأكثر قدرة ومرونة على الإيفاء بمستلزمات البحث العلمي الجغرافي [٣٥] ، ويرى بعض الباحثين في هذا المنهج ما يشكل عيباً على الجغرافية بالنظر لما يوحي له من انه منهج قديم وقليل الفائدة ، الا ان اغلب الدراسات الجغرافية الحديثة حتى المعتمدة على الوسائل الكمية يكون الوصف الطابع الرئيس فيها .

٥ـ المنهج الوظيفي :

يعتمد المنهج على التحليل الجغرافي للوظائف الاقتصادية والسكانية والاجتماعية التي يؤديها الحيز المكاني سواء كان على مستوى مساحي صغير ام كبير ضمن مرحلة زمنية أو مراحل زمنية متتالية .

٦ـ المنهج المقارن :

يقوم المنهج على مقارنة الظاهرة الجغرافية لمرحلة زمنية واحدة في مكانين متباعدين أو المقارنة بين ظاهرتين من اجل بناء قاعدة من العلاقات المكانية والسببية . وقد أعتمد **دودج** هذا المنهج في دراسته .[٣٦]

٧ـ المنهج دراسة الحالة :

يعتمد المنهج على تعمق الباحث في دراسة العامل او العوامل الجغرافية عبر مرحلة تاريخية او مراحل تاريخية متتالية والتي تؤدي الى التغير الجغرافي عبر الزمن [٣٧] ، اذ تكون الدراسة مفصلة مستفيضة من أجل الكشف عن جوانبها المتعددة والوصول الى تعميمات ، على سبيل المثال دراسة القرية او الوظيفة السكنية او الوظيفة الصناعية او النشاط العمراني وغيرها .

٨ـ المنهج الاستقرائي :

يعتمد هذا المنهج على الملاحظة والتجربة تمهيداً لصياغة الفرضية والتأكد من صدقها ، ومن ثم التوصل الى النظرية التي تفسر المشكلة ، أي الانتقال من الخاص الى العام ، ومن الظواهر الى قوانينها ، وهو استدلال منطقي ، اذ يقوم الباحث بملاحظة الظاهرة او المشكلة الجغرافية لمرحلة تاريخية او لمراحل تاريخية متتالية ثم يحلل العلاقات القائمة بين عناصرها [٣٨] بغية وضع الفرضية .

٩_ المنهج الاستنباطي :

وهو عكس المنهج الاستقرائي ، اذ ينتقل من العام الى الخاص ، أي استدلال النتائج من المقدمات لأن النتيجة تكون متضمنة في المقدمة والاستنباط يبرزها [٣٩] ، فهو يقوم على جمع البيانات والحقائق الجغرافية لمرحلة او لمراحل تاريخية ثم فحصها للتأكد من صلاحية الفرضية .

١٠_ منهج التحليل السببي :

يقوم على أساس التفسير السببي للخصائص الجغرافية من اجل بيان أثرها في الحوادث التاريخية لمرحلة او مراحل تاريخية متتالية [٤٠] ، اذ يساعد على تشخيص العلاقات المتبادلة بين الظاهرات المختلفة من عبر معرفة الأسباب والمسببات ، ويقوم المنهج على أساسين هما : التوزيع والعلاقات الجغرافية .

١١_ منهج الفرض المسبق :

يعتمد هذا المنهج على دراسة الخصائص الجغرافية لمرحلة تاريخية او مراحل عديدة من عبر وضع الفرضية ثم السعي للتأكد من صدقها أو عدم صدقها[٤١] .

مما لا شك فيه لا يقتصر الباحث في الجغرافية التاريخية على منهج واحد ، بل يمكن ان يتعداه الى مناهج عدة لتساعده في دراسته ، اذ توجد مناهج عديدة يكمل احدهما الأخر من اجل الوصول الى هدف البحث المراد انجازه في الجغرافية التاريخية .

الخلاصـــــة :

ان الدراسة في الجغرافية التاريخية ستخرج بالجغرافية الى مفاهيم وأفاق ورؤية جديدة ، يساهم الباحث من عبرها بتوسيع حلقة الدراسة الجغرافية ، اذ ان الكثير من الحقائق الجغرافية في الحاضر غامضة ، ولكنها تصبح واضحة عندما نصلها بجذورها ، اذ تحتل الجغرافية التاريخية أهمية واضحة في العمل الجغرافي بحكم دراستها للماضي الذي يعد جذر مشاكل الحاضر ورؤية المستقبل ، فأية ظاهرة جغرافية ظهرت وتطورت فهي تستمد حقيقتها من ماضيها .

يرى الباحث ان الجغرافية التاريخية قسماً مستقلاً وله فروعه وهو ليس فرعاً من الجغرافية البشرية حسبما يعتقد بعض الجغرافيين ، فهي تهتم بدراسة دينمية المكان عبر الزمن ، لذا مما لا شك فيه تمتلك مفاهيم متنوعة أدت الى خلق إشكالية في مفهومها لرؤية واحدة واضحة للعمل الجغرافي ، بالإضافة الى إشكاليات الفصل بين الماضي والحاضر أو بين الجغرافية التاريخية وجغرافية ما قبل التاريخ . وقد وضع الباحث حدود بين تلك الإشكاليات التي أدت الى قلة اهتمام الباحثين الجغرافيين فيها وعلى الرغم من تميزها بوضوح منهج البحث فيها .

ومن جانب آخر ، يجب الإحاطة بأسس الجغرافية الطبيعية البشرية لكل من يرغب في التخصص في الجغرافية التاريخية ، فضلاً عن امتلاكه موهبة الاستنتاج السليم وعدم الخلط بين الجغرافية التاريخية والتاريخ .

الهوامـــش

(١) يسري الجوهري ومحمد السيد غلاب ، الجغرافية التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجره ، الطبعة الأولى ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٨ ،ص٦.

(٢) صفوح خير ، الجغرافية موضوعها ومناهجها وأهدافها ، دار الفكر، دمشق ، ٢٠٠٢ ، ص٣٤ .

(٣) محمد رشيد الفيل ، الجغرافية التاريخية للكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٢ ، ص٩٥ .

(٤) دربي ، العلاقة بين الجغرافية والتاريخ (محرر) جريفت تيلور، الجغرافية في القرن العشرين/ دراسة لتقدمها وأساليبها وأهدافها واتجاهاتها ، ، ترجمة محمد مرسي ابو الليل وزميله ، ج٢ ، القاهرة ، ١٩٧٥، ص٤٠٩ .

(٥) هارتشون ، طبيعة الجغرافية ، ترجمة شاكر خصباك ، ج١، مطابع الموصل ،١٩٨٤ ، ص٢٨٦ .

* جغرافية الحاضر : هي كل فروع الجغرافية الطبيعية والبشرية التي تدرس الحاضر .

(٦) هارتشون ، طبيعة الجغرافية ، المصدر نفسه ، ص ٢٨٣.

** تبدأ دراسة التأريخ المعاصر حسبما يذكر التاريخيون من عام ١٩٤٥ الى الوقت الحاضر .

(٧) جمال حمدان ، شخصية مصر ، دراسة في عبقرية المكان ،مطبعة دار العالم العربي ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص٥٣ .

(٨) محمد رشيد الفيل ، الجغرافية التاريخية للكويت ، المصدر السابق ، ص٩١ .

(٩)حسن صعب ، المقاربة المستقبلية للإنماء العربي ، الطبعة الاولى ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٩ ، ص١٠٦.

*** لم ينته عصر ما قبل التاريخ في وقت واحد ، ففي العراق ومصر عرفا الكتابة في وقت مبكر جداً حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد ، بينما عرفت بلاد العالم الأخرى الكتابة في التواريخ المتتالية ، ولا تزال تعيش بعض الشعوب عصر ما قبل التاريخ حتى الوقت الحاضر مثل الشعوب الأسترالية الأصلية وشعوب البوشمن في جنوب افريقيا .

– يسري الجوهري ومحمد سيد غلاب ، الجغرافية التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجره ، مكتبة الأنجلو مصرية ، ١٩٨٦ ، ص ١٩ – ٢٠ .

(١٠) يسري الجوهري ومحمد السيد غلاب ، الجغرافية التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجره ، المصدر السابق ،ص٢٢ .

(١١) يسري الجوهري ، دراسات في الجغرافية التاريخية ، الكتب الجغرافية (٤٢) ، منشأه المعارف الإسكندرية ، بلا سنة ، ص١٥ .

(١٢) جوردن أيست ، الجغرافية توجه التاريخ ، ترجمة جمال الدين الدياصوري ، مراجعة دولت احمد صادق ، سلسلة الألف كتاب (٩١) ، دار الهلال ، بلا سنة ، ص٢٠ .

(١٣) عبد الفتاح محمد وهيبة ، الجغرافية التاريخية بين النظرية والتطبيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠ ،ص١٧ .

**** ان بعض الجغرافيين غير المتخصصين في الجغرافية التاريخية يتصورون ان الدراسة التطورية مرتبطة بالجغرافية التاريخية ، إلا انها تدخل ضمن حقل الفكر الجغرافي ايضاً .

– يسري الجوهري ، دراسات في الجغرافية التاريخية ، الكتب الجغرافية (٤٢) ، منشأة المعارف ، الأسكندرية ، بلا سنة ، ص ١٩ .

(١٤) محمد رشيد الفيل ، الجغرافية التاريخية للكويت ، المصدر السابق ، ص٨٣_٨٦ .

(١٥) يسري الجوهري ، دراسات في الجغرافية التاريخية ، المصدر السابق ، ص١٦ .

(١٦) يسري الجوهري، دراسات في الجغرافية التاريخية ، المصدر نفسه ، ص١٨ .

(١٧) يسري الجوهري ومحمد السيد غلاب ، الجغرافية التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجره ، المصدر السابق ، ص٩ .

(١٨) محمد رشيد الفيل ، الجغرافية التاريخية للكويت المصدر السابق ، ص٨٢ .

(١٩) عبد الفتاح محمد وهيبة ، الجغرافية التاريخية بين النظرية والتطبيق ، المصدر السابق ، ص٢٠ .

(٢٠) محمد رشيد الفيل ، الجغرافية التاريخية للكويت ، المصدر السابق ، ص٨٢_٨٦ .

(٢١) يسري الجوهري ، دراسات في الجغرافية التاريخية ، المصدر السابق ، ص١٨ .

(٢٢) جمال حمدان ، شخصية مصر ، دراسة في عبقرية المكان ،المصدر السابق ، ص٥٥ .

(٢٣) هارتشون ، طبيعة الجغرافية ، المصدر نفسه ، ص٨٢٣ .

(٢٤) طه محمود جاد ، نظرات في الفكر الجغرافي الحديث ، مجلة الجغرافية الكويتية ، العدد ١٩ ، الكويت ، ١٩٨٠ ، ص٣٦ .

***** التعمير المتصل : وهي طريقة ابتكرها هوتيلسي في سنة ١٩٢٩ ، تقوم على دراسة اية مدينة من خلال تقسيمها الى عصور تاريخية يتميز كل عصر بنمط عمراني متميز عن غيره .

– هارتشون ، طبيعة الجغرافية ، ترجمة شاكر خصباك ، ج ١ ، مطابع الموصل ، ١٩٨٤ ، ص ٢٧٤.

(٢٥) هارتشون ، طبيعة الجغرافية ، المصدر السابق ، ص٢٧٤ .

(٢٦) طه محمود جاد،نظرات في الفكر الجغرافي الحديث،المصدر السابق، ص٣٧ .

(٢٧) يسري الجوهري ، دراسات في الجغرافية التاريخية ، المصدر السابق ، ص١٤ .

(٢٨) هارتشون ، طبيعة الجغرافية ، المصدر السابق ، ص٢٨٢ .

(٢٩) يسري الجوهري ، دراسات في الجغرافية التاريخية ، المصدر السابق ، ص١٧ .

(٣٠) عبد الفتاح محمد وهيبة ، الجغرافية التاريخية بين النظرية والتطبيق ، المصدر السابق ، ص٢٦ .

(٣١) صفوح خير ، الجغرافية موضوعها ومناهجها وأهدافها ، المصدر السابق ، ص٥٤ .

(٣٢) صفوح خير ، الجغرافية موضوعها ومناهجها وأهدافها ، المصدر نفسه ، ص٥٥ .

(٣٣) محمد محمد سطحية ، الجغرافية الإقليمية ، دراسة لمناطق العالم الكبرى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، بلا سنة ، ص ١٩.

(٣٤) محمد محمد سطحية ، الجغرافية الإقليمية ، دراسة لمناطق العالم الكبرى ، المصدر نفسه ، ص٢٠.

(٣٥) طه محمود جاد ، نظرات في الفكر الجغرافي الحديث ، المصدر السابق ، ص٥٨ .

(٣٦) هارتشون ، طبيعة الجغرافية ، المصدر السابق ، ص٢٨٧ .

(٣٧) احمد بدر ، اصول البحث العلمي ومناهجه ، الطبعة الثانية ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٥ ، ص٢٩٢ .

(٣٨) صفوح خير ، الجغرافية موضوعها ومناهجها وأهدافها ، المصدر السابق ، ص١٢٤.

(٣٩) صفوح خير ، الجغرافية موضوعها ومناهجها وأهدافها ، المصدر نفسه ، ص١٢٤ .

(٤٠) طه محمود جاد ، نظرات في الفكر الجغرافي الحديث ، المصدر السابق ، ص٧٢ .

(٤١) طه محمود جاد ، نظرات في الفكر الجغرافي الحديث ، المصدر نفسه ، ص٨٧ .